إشكالية القراءة الأدبية عند عبد الملك مرتاض

د. الشارف لطروش

جامعة مستغانم

1 . القراءة (المصطلح والمفهوم)

كان مصطلح القراءة يعني تعدد الرؤى في التعامل مع النصّ أو الإبداع الأدبي ولكنه في الكتابات الحداثية أصبح من الصعب الإمساك بمفهومه؛ لأنّه بات يشمل معطيات عديدة، ويتصدر مفردات الخطاب المتعلقة بالفهم والتشخيص والتقدير والتفسير وغيرها[1].

وقد احتفى الحداثيون به لأنهّ حرّر فكرهم من جهود القيود المنهجية، وهم يكادون يتفقون على ثلاث مستويات في قراءة النصّ الأدبي ومقاربته وهي:

– قراءة النصّ الأدبي في إطار الشروط المتحكمة في إنتاجه وهي شروط (نفسية أو اجتماعية أو تاريخية)، ويتبنى هذه القراءة النقد السياقي (النقد النفسي والاجتماعي والتاريخي...)، وقد سادت هذه القراءة في فترة تعرف بلحظة المؤلف.

– قراءة النص الأدبي بالنظر لكونه بنية أو نسقا لغويا أو نظاما له قواعده، وهذه القراءة يتبناها النقد المتأثر بالدرس اللغوي السوسيري، وجاءت في فترة عرفت بلحظة النصّ.

– قراءة النص الأدبي باعتباره رسالة أو خطاب من مبدع منتج إلى متلق وتتبناه المناهج المعاصرة، وهذه تعرف فترتها بلحظة القارئ أو المتلقي.

---

(1)– ينظر على حرب . هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2005/1م، ص9..

2 . القراءة الأدبية

يرى عبد الملك مرتاض أن القراءة قديمة في التعامل لدى العرب، إذ مورست تحت أشكال مختلفة وعلى أكثر من نص أدبي، لكن المصطلح جاء به الحداثيون محاولين إلغاء مصطلح النقد، فالقراءة تتطلع إذن لمزاحمة النقد وربما الإطاحة به مثله مثل الشرح والتحليل، وتحتوي كلّ هذه المفاهيم جملة واحدة في نفسها، فكأنّها في التقليد الأدبي المعاصر مفهوم جامع لكل الأنشطة الإبداعية والفكرية التي تثمرها النصوص الأدبية التي تمارس عليها قراءة أخرى[1]

ونفهم من كلام الناقد أنّ القراءة قراءات، ولها مستويات، والذي يحاول التأسيس له من خلال كتابه (نظرية القراءة) الصادر عام 2005م هي القراءة الأدبية التي يقول في مفهومها:

(لكن يجب أن نحتاط ونحن نقرّر أمرنا حوال هذا المفهوم اللزج المريج فكما أنّ الكتابة إنّما تنصرف إلى الكتابة الإبداعية التي يثمرها الخيال القريحة السخيّة النقيّة، فإنّ القراءة أيضا . وهي النشاط التي يضطرب من حولها . إنّما تمارس على كلّ ما هو إبداع وتتمحّض لكلّ ما هو فن جميل)[2].

وقد جاء كتابه محاولة جادة لحل أكبر إشكاليات القراءة الأدبية وهي: المسألة المنهجيّة أي منهج قراءة النّصّ الأدبيّ، وأدواتِ وإجراءات تحليل النصّ وتأويله. وقد انطلقت فكرة الكتاب .كما يذكر صاحبه . من بحوث في السيرة الشعرية لأبي القاسم الشابي، ولكنه تناول ثلاثة شخصيات أدبية أخرى منها عبد الله الغذامي وعبد السلام المسدي.

---

(1) . ينظر عبد الملك مرتاض . نظرية القراءة، [دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م، ص14 . 15

(2) . عبد الملك مرتاض . نظرية القراءة، ص15.

وقد تابع الباحث جهود النقاد في القديم والحديث، وفي الشرق والغرب، في قراءة النّصّ الأدبيّ، وحاول الاستفادة من تلك التجارب المتراكمة، ليؤسّس جملة من المبادئ الكبرى التي يمكن الاستئناس بها لدى قراءة نصّ من النّصوص.

ومن أهمّ النتائج التي توصل إليها ما يلي:

– إنّ النّص الواحد قد يُقرأ عدّة مرّات من شخصٍ واحدٍ، فيختلف عطاؤه،

– النّصّ لا تحدّه الحدود، وسيظلّ الإبداع في شأنه مفتوحاً إلى يوم القيامة، وكذلك ما يُكتب من حوله يجب أن يظلّ مفتوحاً، وهو تحليله وقراءته وتأويله.

– القراءة مصطلح نقديّ من المصطلحات التي ظهرت في القرن العشرين، وقبل ذلك كان النقّاد يمارسون القراءة حقّاً، ولكنْ تحت مصطلحاتٍ أُخَرى.

إنّ النقد الجديد أصبح يجنح إلى الاستغناء عن جملة من المفاهيم القديمة، ومفهوم القراءة عند المحدثين هو متابعةٌ جماليّة وفنّيّة وتقنيّة معاً لنصّ من النّصوص الأدبيّة من خلال تحليل بناهُ اللّغويّةِ برُكوب إجراءات ملائمة تليق بمضمون النّصّ وشكله جميعاً.

– إنّ مفهوم القراءة الذي يقترب من التحليل لا ينبغي له أن تلغي مفهوم النقد الذي يجب أن يظلّ قائماً باقياً، ولا يستغني أحدهما عن الآخر.

– توسّع مفهوم القراءة ليشمل كلّ قراءة من حول كلّ ما تنتجه القرائح وخصوصا ما له صلة بالإبداع المصنّف في الدرجة الثانية مثل قراءة الإعلامي تعليقا على خطاب رجل سياسة، والتعليق هو مفهوم آخر للقراءة[1]،

3 . القراءة عند العرب

وقد انصرف همّ عبد المالك مرتاضّ وجهده إلى البحث عن الإجراءات التي كان النُّقّاد العرب القدماء أمثال الزوزني، والمرزوقي، والتبريزي يحلّلون بها الأشعار،

(1) . المصدر نفسه، ص18.

فاستخلص من تلك القراءات وجود نظريّة عربيّة، تراثيّة، لقراءة النّصّ الشعريّ لا تند عن ثلاثة مستويات هي[1] :

المستوى اللغوي والنحوي والأسلوبي بحيث كان القارئ أو محلّل النّص وكان يسمّى الشارح، وكان في المستوى الأول يعمد إلى شرح الألفاظ الغريبة وفكّ المعاني التي يراها مستعصية على المتلقّي في النصّ المطروح، وفي المستوى الثاني يقوم بقراءة النص المطروح فيخرجه تخريجا نحويا مقدرا ومعربا وكان هذا الأخير يكمل شرح الألفاظ. وأمّا في المستوى الثالث فكان يعمد إلى نثر البيت وتلخيصه، وكانت النصوص المطروحة للتحليل في القرون الأولى للهجرة منحصرة في الشعر ثم توسعت للنثر خصوصا في المقامات والخطب .

وكانت القراءة عدهم تقوم على قراءة سابقة تنهض على الذوق الخالص وعلى المقدرة الذاتية، وقد مثّل كل ذلك تراكما معرفيا، بنى عليه النقاد العرب جهودهم بالإضافة إلى تلقيح تلك الجهود بالنظريات والتجارب الغربية في القرن العشرين.

4 . موقفه من قضية موت المؤلف

موت المؤلف هي قضية تولدت عن النقد الحديث، وقد دعا إليها رولان بارت(1915-1980)[2]، وهناك من يرى أنّها تعني أنّه من الخطأ النظر إلي العمل الأدبي علي أنه غاية نهائية لمراد الكاتب، فليس من الصواب عند تحليل العمل الأدبي النظر إلي شخصية الكاتب، أو إلي تاريخه وذوقه وأهوائه وغيرها من الأمور المتعلقة به، وذلك من منطلق التعددية المفتوحة في تأويل المعنى من ناحية، ومن منطلق أن "البنيوية" لا تنظر إلي أي شيء خارجي عند تحليل العمل الأدبي، فهي ترغب في

(1) . نفسه، ص21.

(2) . رولان بارت. نقد وحقيقة، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، الرباط، 1994م، ص 15-25

تحليل عناصره بالنظر إلي العلاقات القائمة بينها داخل "العمل الأدبي" نفسه، وليس بالنظر إلى أية أشياء خارجية، سواء كانت تعود إلي المؤلف أو غيره.

وهذه القضية في نظر الناقد عبد الملك مرتاض أسطورة، تبدو فيها من الهشاشة والعبث ما يحتم على النّقد الجديد أن يتوقف عندها وأن يتعمّق في بحثها لإمكان الانتهاء فيها إلى نظريّة.

5 . منهج القراءة عند عبد المالك مرتاض:

لا يوجد في نطر عبد المالك مرتاض منهج كامل، مثاليّ، لا يأتيه الضّعف ولا النّقص من بين يديه ولا من خلفه ولذلك فهو يرى من التّعصب التّمسك بتقنيات منهج واحد على أساس أنّه، هو وحده، ولا منهج آخر معه، مَجدَرَةٌ أن يُتّبع[1]، وانطلاقا من ذلك فهو لا يستنيم، من حيث المبدأ، إلى أي منهج إذاً؛ ويجتهد، أثناء الممارسة التّطبيقية، أن يضيف ما استطاع إضافته من أصالة الرّؤية لمنح العمل الأدبي الّذي ينجزه شيئا من الشّرعيّة الإبداعيّة، وشيئا من الدّفء الذّاتي، معا وبالتّالي أصبح تهجين أي منهج أمرا ضروريا لتكتمل أدواته، وليصبح أقدر على العطاء والرّؤية[2]

وقد عرض عبد المالك مرتاض . في كتابه نظرية القراءة . أغلب المفاهيم القديمة والحداثية للقراءة وبيّن تطوّرها وأهمّ سلبياتها ثم بيّن القراءة التي يميل إليها ويسعى إلى ترسيخها فقال عنها ما بيانه : (فالقراءة التي نريد إليها تلك التي تجعل المكتوب المقروء معا كتابة جديدة تقرأ: تنتهض على أنقاظ المقروء)[3]

والعناصر التي يتحدث عنها مرتاض في سياق حصره للعناصر المميزة للعمل الأدبي هو فكرة التناول النقدي المستوياتي، مثل مستوى اللغة، ومستوى التراكمات

---

(1) . عبد المالك مرتاض . التحليل السيميائي للخطاب الشعري، تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2001، ص: 18

(2) . ينظر المرجع نفسه، ص 19 . 21.

(3) . عبد المالك مرتاض، نظرية القراءة، ص30.

الدلالي الواجب تفكيكها بواسطة التحليل والاستقصاء والافتراض ...، والمستوى الزمني، والمستوى الإيقاعي..

وتلك القراءة التي يتبناها عبد المالك مرتاض ويدعو إليها هي قراءة متعددة مع النظر إلى النصّ من خمسة أو ستة مستويات أو سبعة، وقد طبّقها في دراسته وتحليله لنص من ألف ليلة وليلة، وكان تحليلا سيميائيا تفكيكيا[1]، وأمّا أهمّ مستويات تلك القراءة فهي المستوى اللغوي والحيّزي والزمني والإيقاعي والتشاكلي.

فالنص الأدبي في منظوره تشكيل لغوي ذو مستويات، والمنهج الذي يتبناه يسميه التركيب المنهجي المفتوح والمنتشر، وقد دعا إليه بإلحاح في أكثر من مقام لأنّ التّعدّدية المنهجيّة أصبحت تشيع الآن في بعض المدارس النّقدية الغربيّة، ويرى أنّه لا حرج في النّهوض بتجارب جديدة تمضي في هذا السبيل بعد التّخمة الّتي مُني بها النّقد من جرّاء ابتلاعه المذهب تلو المذهب خصوصا في هذا القرن[2].

والانفتاح على المناهج النقدية الغربية الذي ينادي به عبد الملك مرتاض ليس انفتاحا مطلقا بل هو انفتاح بوعي كامل، ف (مرتاض يبقى ولا يزال ناقدا غربيّ المنهج، عربيّ الطريقة... حداثيّ المادة، تراثيّ الروح)[3].

ونجده في تطبيقاته للمنهج الذي ينادي به التكامل في الإفادة من جميع التيارات اللساناتية والمخصبة بالتيار السيميائي مثل البنيوية بمدارسها والتفكيكية والأسلوبية بإجراءاتها[4].

---

(1) . ينظر المصدر نفسه، ص46.

(2) . عبد المالك مرتاض . تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م، ص 6

(3) . ينظر وغليسي يوسف . الخطاب النّقدي عند عبد الملك مرتاض، ص: 08 .

(4) ينظر مولاي علي بوخاتم . الدرس السيميائي المغاربي، ط1/ ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005م، ص14.